أوكتافيا بتلر

أصوات الكلام

ترجمة: وسام محمد عبده

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أصوات الكلام

رواية مترجمة..

أوكتا□يا بتلر

ترجمة: وسام محمد عبده

أصوات الكلام ([1])

كانت هناك مشكلة على متن حافلة «واشنطن - بليفارد». كانت «راي» تتوقع المتاعب في رحلتها عاجلًا أم آجلًا. كانت قد توقفت عن الشعور بالوحدة واليأس اللذين دفعاها للخروج. كانت تعتقد أن مجموعة من أقاربها ربما ما زالوا على قيد الحياة؛ أخيها وطفلَيه الذين يعيشون على بُعد عشرين ميلًا في «بسادينا». إنها رحلة يوم واحد في اتجاه واحد لو كانت محظوظة. بدا أن وصول الحافلة، غير المتوقَّع لحظة مغادرتها بيتها في شارع «فيرجينيا»، علامة على الحظ، حتى بدأت المتاعب.

شابان اختلفا حول أمر ما، أو على الأرجح كان هناك ثمة سوء فَهْم بينهما. وقفا في الممر، ينخران ويُلوِّحان أحدهما للآخر، كلاهما في موقف متردد، عندما ارتجت الحافلة لحظة عبورها فوق حفرة في الطريق. بدا أن السائق يبذل مجهوده لاستعادة توازُن الحافلة. توقَّف نخر الشابين لوهلة، وعوضًا عن تبادُل الشتائم، كان التخويف باللكمات الزائفة والضربات الوهمية التهديدية.

كان الركاب يشاهدون الاثنين، ويتبادلون النظرات، وتصدر عنهم أصوات قلِقة خافتة. راح طفلان يبكيان. كانت «راي» تجلس وراء المتخاصمين ببضع أقدام، وبالقرب من الباب الخلفي كانت تراقب الشابين، وتعرف أن العراك سوف يبدأ عندما تتحطم أعصاب أحدهما، أو تخطئ يد أحدهما، أو تنتهي قدرة أحدهما على التفاهم، ومثل هذه الأمور يمكن أن تحدث في أيِّ وقت.

وقد وقع واحد من هذه الأمور، عندما وثبت الحافلة عند عبورها فوق حفرة في الطريق؛ فسقط الطويل النحيل الساخر على خصمه القصير. وفي التو، وجَّه القصير قبضته اليسرى نحو الساخر المنهار. راح يضرب خصمه الأضخم بغير حاجة لأيِّ سلاح سوى قبضته اليسرى. كان يلكم بقوة وسرعة؛ ليُبقِي خصمه في الأرض قبل أن يحاول استعادة توازُنه أو رد الضرب.

راح الركاب ينخرون وينفضُّون في خوف. هؤلاء القريبون من المتعاركين راحوا يتفرقون بعيدًا. راح ثلاثة شبان آخرين يزمجرون في حماس ويُلوِّحون بوحشية. ثم، وبطريقة ما، اندلع عراك ثانٍ بين اثنين من هؤلاء الثلاثة؛ ربما لأن أحدهم مسَّ آخر أو ضربه دون قصد. وبينما كانت المعركة الثانية تدور تفرَّق المزيد من الركاب الخائفين. كانت هناك امرأة تهز كتفَي سائق الحافلة، ناخرة كأنها تُلوِّح بالحرب. كشَّر السائق عن أسنانه رادًّا النخر؛ فابتعدت المرأة خائفة.

كانت «راي» تعرف أساليب سائقي الحافلات، فثبتت نفسها وقبضت على عارضة المقعد المقابل لها. وعندما شد السائق كبَّاحات الحافلة، كانت مستعدة، بينما لم يكُن المتعاركون كذلك؛ فسقطوا فوق المقاعد والركاب الصارخين، متسببين في مزيد من الارتباك. على الأقل، نشب عراك آخر.

في تلك اللحظة التي توقفت فيها الحافلة بالكامل، كانت «راي» على قدَميها، تدفع الباب الخلفي. عند الدفعة الثانية، فُتِح الباب، فوثبت منه نحو الخارج، ممسكة

بحقيبتها بذراع واحدة. العديد من الركاب الآخرين تبعوها، ولكن بعضهم بقي داخل الحافلة؛ فالحافلات قد أصبحت نادرة الآن، وغير منتظمة، والناس تركبها عندما يكون بمقدورهم، دون النظر لحالها. ربما لن تكون هناك حافلة اليوم أو غدًا. راح الناس يمشون، وإذا شاهدوا حافلة، يشيرون إليها.

هؤلاء الذين كانوا يرتحلون بين المدن، مثل: «راي»، من «لوس أنجلوس» إلى «بسادينا»، راحوا يخططون ليخيموا، أو يخاطروا بالبحث عن مأوى لدى السكان المحليين، الذين قد يسلبونهم أشياءهم أو يقتلونهم.

الحافلة لم تتحرك، ولكن «راي» مضت مبتعدة عنها. كانت تنوي أن تنتظر حتى ينتهي الشجار، ثم تعود إليها ثانيةً، أما لو جرى تبادُل لإطلاق النيران، فسوف تحتمي بالأشجار. كانت قريبة من حاجز الطريق، عندما رأت سيارة «فورد» زرقاء في الجهة الأخرى من الطريق، تدور ثم تتوقف أمام الحافلة. السيارات نادرة هذه الأيام؛ بسبب ندرة الوقود والميكانيكيين الأمناء القادرين على إصلاحها. ما تبقَّى من السيارات، على الأرجح يُستخدَم كسلاح أو وسيلة للنقل؛ لذلك عندما أشار لها سائق السيارة «الفورد»، مضت بعيدًا محاذرة. ترجل سائق السيارة، كان رجلًا ضخمًا وشابًّا وبلحية كاملة وشعر كثيف أسود. كان يرتدي معطفًا طويلًا، نظر بحذر نحو «راي». وقفت على بُعْد عدة خطوات منه تنتظر أن ترى ماذا سوف يفعل. ألقى نظرة على الحافلة التي كانت ترتج بسبب العراك الدائر داخلها، ثم نظرة أخرى على الجماعة الصغيرة من الركاب الذين نزلوا منها، وأخيرًا نظر لـ«راي» مرة ثانية.

بادلته النظر، متأهبة لاستخدام المسدس عيار خمسة وأربعين الآلي الذي يخفيه معطفها، فراقبت يدَيه. أشار بيده اليسرى نحو الحافلة، التي كانت نافذتها المظللة تمنعه أن يرى ما يدور بالداخل. ما لفت نظر «راي» هو استخدامه ليده اليسرى، وأكثر ما لفت نظرها سؤاله الواضح. العُسر عادةً ما يكونون غير مؤذين وأكثر عقلًا وفهمًا، وأقل انسياقًا للإحباط والارتباك والغضب.

مقلدة إشارته، أشارت بيسراها إلى الحافلة، ثم راحت تلكم الهواء بكلتا قبضتَيها. خلع الرجل معطفه، فبدا في كامل الزي الرسمي لـ«قسم شرطة لوس أنجلوس»، مسلحًا بعصا ومسدسًا رسميين. تراجعت «راي» خطوة أخرى بعيدًا عنه. لم يعُد هناك «قسم شرطة لوس أنجلوس» بعد، ولا أيُّ مؤسسة كبيرة، حكومية أو خاصة، ليس ثمة إلا دوريات الأهالي والأفراد المسلحين.

أخذ الرجل شيئًا ما من جيب معطفه، ثم قذف بالمعطف إلى داخل السيارة. ثم أشار إلى «راي» أن تتراجع إلى ما وراء مؤخرة الحافلة. كان بيدَيه شيء ما مصنوع من البلاستيك. لم تفهم «راي» ما الذي يريده، حتى ذهب إلى الباب الخلفي للسيارة وأشار لها أن تقف هناك. أطاعته من باب الفضول. شرطي أو ليس شرطيًّا، ربما كان بمقدوره أن يفعل شيئًا ليوقف هذا الشجار الغبي.

دار حول السيارة، إلى الجانب المواجه للشارع حيث نافذة السائق المفتوحة. وهناك، ظنت أنها قد شاهدته يقذف بشيء داخل الحافلة. كانت تحاول أن تخترق بنظرها

الزجاج المظلل، عندما تدافع الناس على الباب الخلفي للحافلة يسعلون ويبكون.. غاز!

التقطت «راي» سيدة مسنة كادت أن تسقط، ورفعت طفلين من الأسفل تبعدهما عن خطر الدهس والسحق. كان بمقدورها أن ترى الرجل الملتحي يساعد الناس عند الباب الأمامي. التقطت رجلًا مسنًّا نحيلًا ألقاه للخارج بعض المتعاركين. ترنحت تحت وطأة وزن الرجل، وبالكاد استطاعت أن تبتعد متفادية آخِر الشباب الذي يشق طريقه للخارج. كان هذا الأخير ينزف من أنفه وفمه، عندما تعثر بآخر، فاشتبكا معًا على نحو أعمى، وهما لا يزالان ينشجان من الغاز.

ساعد الملتحي سائق الحافلة على الخروج من الباب الأمامي، ولكن السائق بدا وكأنه لا يُقدِّر مساعدته. للحظة، ظنت «راي» أنه سوف يكون هناك شجار آخر. تراجع الملتحي وهو يشاهد سائق الحافلة يُلوِّح مُهدِّدًا، يشاهده يصرخ في غضب بلا كلام.

ظل الملتحي واقفًا محله، دون أيِّ صوت، رافضًا أن يُبدِي أيَّ رد على إشارات التهديد الواضحة والقذرة.. الناس الأقل ميلًا للأذى عادةً ما يفعلون ذلك؛ يتراجعون ما لم يتعرضوا لتهديد بدني، تاركين هؤلاء الأقل تحكمًا في أنفسهم، يصرخون ويتواثبون حولهم. كان الأمر وكأنهم يشعرون أنهم أقل منهم، سريعو الغضب وأقل تفهمًا. كان هذا سلوك الترفع والطريقة التي يفهمها الرجال مثل سائق الحافلة. وكثيرًا ما تكون عاقبة هذا الترفع، الضرب بل والموت أحيانًا. كان لـ«راي» تجاربها القريبة، ونتيجة لذلك، لم تعُد تتحرك أبدًا غير مسلحة. وفي هذا العالم، حيث لم يعُد هناك أيُّ لغة مفهومة غير لغة الجسد.. أن تكون مسلحًا فهذا يكفي، على الرغم أنها نادرًا ما احتاجت لأن تُلوِّح بمسدسها أو حتى أن تُظهِره.

كان مسدس الملتحي ظاهرًا بوضوح، بوضوح بما يكفي لسائق الحافلة. بصق سائق الحافلة بصورة مثيرة للاشمئزاز، ورمق الملتحي شزرًا للحظات، ثم عاد من جديد إلى حافلته المليئة بالغاز. ظل يُحدِّق في الحافلة للحظة؛ كأنه يريد أن يدخل، ولكن الغاز لا يزال قويًّا. من بين جميع النوافذ، كانت فقط نافذة السائق الصغيرة مفتوحة فعلًا. كان الباب الأمامي مفتوحًا، ولكن الباب الخلفي لن يظل مفتوحًا دون أن يمسكه أحدهم. بالطبع، كانت أجهزة تكييف الهواء معطلة منذ زمن طويل. الحافلة سوف تحتاج إلى وقت طويل حتى تتخلص من الغاز. كان السائق يملك الحافلة ويتخذها مصدر رزقه. ألصق على جانبَي الحافلة صورًا من المجلات القديمة لتلك الأشياء التي يقبلها أجرةً، وفيما بعد يستخدم ما يجمعه من أجرة لإطعام عائلته أو للمقايضة.. إذا لم تسير الحافلة؛ لن يجد ما يأكله. من ناحية أخرى، كانت الحافلة من الداخل قد أتلفها الشجار الأخرق، لن يأكل بصورة جيدة. كان واضحًا أن من الصعب عليه تقبل ذلك. كل ما كان يراه أمامه لا يعني له سوى المزيد من الوقت الضائع قبل أن يتمكن من استخدام حافلته ثانيةً.

لوَّح بقبضته في وجه الملتحي وصرخ له، وبدا وكأن صراخه يحتوي بضع كلمات، ولكن «راي» لم تستطِع أن تفهمها. لم تدرِ إن كان هذا عيبه أم عيبها. كانت قد

سمعت القليل من الكلام البشري المفهوم في الأعوام الثلاثة الماضية، ولم تعُد متأكدة كيف يمكنها أن تفهمه، ولا تعرف إلى أيِّ حد قد تدهورت.

تنهَّد الملتحي، وألقى نظرة على سيارته، ثم أشار إلى «راي» كان مستعدًّا أن يغادر المكان، ولكنه يريد شيئًا ما منها قبل ذلك. كلا، هو يريدها أن تذهب معه. مخاطرة أن تمضي بصحبته، باستثناء زيه الرسمي، فلم يعُد هناك ثمة قانون أو نظام، بل ولا حتى كلام.

هزت رأسها بإشارة النفي المفهومة عالميًّا، ولكن الرجل ظل يشير لها. لوَّحت له، كان يفعل ما يفعله نادرًا هؤلاء الأقل ضعفًا؛ أن يُظهِروا اهتمامًا سلبيًّا محتملًا تجاه الآخرين المشابهين لهم. بدأ ركاب الحافلة ينظرون نحوها.

أحد المتعاركين لمس آخر على ذراعه، ثم أشار إلى الملتحي و«راي»، وأخيرًا رفع كفه اليمنى مُظهِرًا إصبعَيه السبابة والإبهام طاويًا الأصابع الأخرى؛ كأنه يقوم بتحية الكشافة. صوت نخرهم مسموع من مسافة، اعتبروها هي والملتحي من نفس الفئة.. ماذا بعد؟

الرجل الذي كان ينخر نظر نحوها. لم تدرِ ما الذي ينويه، ولكنها تقف على أرضها. كان الرجل أطول منها بنحو نصف قدم، وربما كان يصغرها بعشرة أعوام. لم تتخيل أن بوسعها أن تنجو منه. ولم تتوقع أن يمد لها أيُّ أحد يد المساعدة إذا احتاجت إلى المساعدة؛ فجميع مَن حولها غرباء.

لوَّحت بيدها مشيرة بوضوح للرجل أن يتوقف. لم يكُن في نيتها أن تكرر الإشارة. لحُسْن الحظ، أطاعها الرجل. أشار لها إشارة بذيئة، فضحك عدد من الرجال الآخرين. تسبب فقدان اللغة المنطوقة في ظهور مجموعة جديدة كاملة من الإشارات البذيئة. كان الرجل يتهمها، ببساطة صارخة، أنها تعاشر الملتحي، مقترحًا عليها أن تعاشر الرجال الآخرين أيضًا مبتدئة به.

كانت «راي» ترقبه حذرة. كان الناس قد وقفوا منتبهين يراقبون ما إذا كان سيغتصبها، أو ستُطلِق هي عليه الرصاص. هل سوف يدفع بالأمور إلى هذا الحد؟! لم يفعل، وبعد سلسلة من الإشارات البذيئة لم يقترب منها، واستدار بازدراء ومضى يمشي في طريقه.

كان الملتحي لا يزال منتظرًا. كان قد خلع مسدسه الرسمي وجرابه. أشار لها ثانيةً بيدَيه الفارغتين. لا شك أن سلاحه في السيارة حيث يمكنه أن يصل إليه بسهولة، ولكنه خلعه؛ حتى تتأثر بالأمر. ربما كان على صواب.. ربما كان وحيدًا وكفى. لقد كانت هي نفسها وحيدة لثلاث سنوات؛ كان المرض قد سلبها كل شيء؛ قتل أطفالها واحدًا تلو الآخر، قتل زوجها وشقيقتها ووالدَيها.

المرض، إذا كان مرضًا، مزق حيوات الناس. اجتاح البلاد، وبالكاد وجد الناس الوقت ليُلقوا باللائمة على السوفيت، الذين لاذوا بالصمت مع بقية العالم، على هذا الفيروس الجديد، العالم الملوث الجديد، الإشعاع، عقاب إلهي.. كان المرض يشبه السكتة الدماغية الخفيفة في الطريقة التي يضرب بها الناس، وفي بعض آثاره.

ولكنه كان محددًا للغاية؛ كانت اللغة دائمًا ما تَفقد أو تضعف بشدة، ولا تَستعاد أبدًا. في كثير من الأحيان، كان هناك أيضًا الشلل، والتدهور الذهني، والوفاة.

مشت «راي» صوب الملتحي، متجاهلة أصوات الصفارات والتصفيق الصادرة عن اثنين من الشباب، وإشارة الإبهام المرفوعة التي يشيرون بها للملتحي. إذا ابتسم لهم، أو أبدى أيَّ تعبير عن شكره لهم بأيِّ طريقة، سوف تُغيِّر رأيها بالتأكيد. لو تركت نفسها تفكر في العواقب المميتة لركوب سيارة مع غريب، سوف تُغيِّر رأيها. بدلًا من ذلك، كانت تفكر في الرجل الذي يعيش عبر شارعها، كان نادرًا ما يغتسل منذ أن أصابه المرض، وأصبحت لديه عادة أن يتبول أينما شاء. كان لديه بالفعل امرأتان، كلٌّ تعتني بحديقته الواسعة، وتقيمان معه مقابل حمايته. لقد أبدى رغبة واضحة في أن تصبح «راي» امرأته الثالثة.

دخلت السيارة فأغلق الملتحي الباب. شاهدته يدور حول السيارة ليصل إلى باب السائق، كانت تراقبه بقلق؛ فسلاحه كان إلى جوارها على المقعد، بينما تقدَّم سائق الحافلة واثنان من الشباب بضع خطوات نحوه. ولكنهم لم يفعلوا شيئًا، حتى أصبح الملتحي في السيارة، فرمى أحدهم بحجر، وراح الآخرون يقلدونه، وبينما كانت السيارة تبتعد، ضربتها عدة أحجار بلا أيِّ ضرر.

عندما أصبحت الحافلة على مسافة خلفهم، مسحت «راي» عرقها من فوق جبهتها وأراحت جسدها. كانت الحافلة قد قطعت بها أكثر من نصف الطريق إلى «بسادينا»، وبقي نحو عشرة أميال كي تمشيها. راحت تتساءل كم يجب أن تمشي الآن، وتسأل إن كان المشي سيكون مشكلتها الوحيدة.

عند تقاطُع «فيجورا» و«واشنطن»، حيث تتجه الحافلة إلى اليسار عادةً، توقَّف الملتحي، ونظر إليها، وأشار لها أن تختار الاتجاه. أشارت له نحو اليسار، وبالفعل اتجه نحو اليسار، فبدأت تشعر بالارتياح؛ إذا كان على استعداد أن يذهب إلى حيث أشارت، فربما هو مأمون.

راحا يتجاوزان كتل الأبنية المحترقة والمهجورة، والأراضي الفارغة، والسيارات المحطمة والممزقة، خلع الملتحي قلادة ذهبية من فوق رأسه وأعطاها لها. كانت القلادة محلاة بحجر أسود ناعم أملس. حجر «أوبسيديان»([2]). لعل اسمه «روك» أو «بيتر» أو «بلاك»، ولكنها قررت أن تسميه «أوبسيديان». حتى ذاكرتها التي كثيرًا ما تكون بلا فائدة، يمكنها أن تتذكر اسمًا مثل «أوبسيديان».

أعطته رمز اسمها؛ دبوسًا في صورة عود قمح ذهبي. كانت أحضرته قبل فترة طويلة من ظهور المرض وبداية الصمت. الآن تحمله، معتقدة أنه أقرب لأن يكون رمزًا لاسمها «راي»([3]). الناس مثل «أوبسيديان» الذين لم يعرفوها من قبل ربما ظنوا أن اسمها «ويت»؛ أي: «قمح».. وكأن الأمر يهم. لن تسمع اسمها يُنطَق ثانيةً. أعاد «أوبسيديان» لها الدبوس، وأمسك يدها عندما مدتها له، وفرك إبهامه على باطن كفها.

توقف عند الشارع الأول، وسألها ثانية عن الاتجاه. بعدما استدار نحو اليمين كما أشارت له، توقَّف إلى جانب مركز الموسيقى، وسحب ورقة مطوية من لوحة قيادة السيارة، وفتحها. أدركت «راي» أن الورقة خريطة للشوارع، حتى ولو لم تكُن تعني أسماء الشوارع المكتوبة فوق الخريطة أيَّ شيء لها. بسط الخريطة، وأمسك يدها ثانيةً، ووضع سبابتها فوق موضع من الخريطة. لمسها، ولمس نفسه، ثم أشار إلى الأرض؛ كأنه يقول: «نحن هنا». عرفت أنه يريد أن يعرف إلى أين هي ذاهبة. أرادت أن تُخبِره، ولكنها هزت رأسها في حُزْن؛ كانت قد فقدت القدرة على القراءة والكتابة؛ كان هذا أخطر ما أصابها وأشده إيلامًا. كانت تدرس التاريخ في «جامعة كاليفورنيا» في «لوس أنجلوس»، وكانت كاتبة مستقلة. الآن لا تستطيع حتى أن تقرأ أوراقها. لديها منزل مليء بالكتب التي لا تستطيع أن تقرأها ولا أن تحمل نفسها على استخدامها كوقود. وكان لديها ذاكرة، لكنها لا تعيد إليها كثيرًا مما قرأته من قبل.

حدَّقت في الخريطة مُحاوِلة أن تحسب. كانت قد وُلِدت في «بسادينا»، وعاشت خمسة عشر عامًا في «لوس أنجلوس». الآن، هي بالقرب من «مركز لوس أنجلوس الحضري». إنها تعرف الموقع التقريبي للمدينتين، والشوارع، والاتجاهات، بل وتعرف أن تبقى بعيدًا عن الطرق السريعة، التي ربما يسدها حطام السيارات والجسور المنهارة. يجب عليها أن تعرف أن تشير إلى «بسادينا»، حتى ولو كانت لا تستطيع تمييز الكلمة.

بتردُّد، وضعت يدها فوق بقعة برتقالية شاحبة في الزاوية اليمنى الأعلى من الخريطة؛ حيث يُفترَض أن تكون «بسادينا».

رفع «أوبسيديان» يدها ونظر تحتها، ثم طوى الخريطة ووضعها من جديد في لوحة قيادة السيارة. أدركت متأخرة أنه يستطيع القراءة، وربما يستطيع أن يكتب أيضًا. فجأة شعرت نحوه بكراهية.. كراهية عميقة مريرة. ماذا تعني القدرة على القراءة والكتابة بالنسبة إليه؟ رجل بالغ يلعب لعبة الشرطة واللصوص، ولكنه يستطيع أن يقرأ ويكتب، وهي لا تستطيع، ولن تستطيع أبدًا. شعرت بألم في معدتها، مختلط بالكراهية والإحباط والغيرة. وفقط، على مسافة بضع بوصات من يدها، كان هناك سلاح مشحون. ولكنها سيطرت على نفسها، وراحت تُحدِّق فيه، بالكاد ترى دماءه. ولكن غضبها الذي بلغ أوجَه كان ينحسر، ولم تفعل شيئًا.

مد «أوبسيديان» يده ليدها في لُطْف وتردُّد. رمقتها بنظرة. كان وجهها يكشف عن كثير بالفعل. لا يُوجَد أحد يعيش فيما تبقَّى من مجتمع بشري، يمكنه أن يُخطِئ مثل هذا التعبير.. تعبير الغيرة.

أغلقت عينَيها متعبة، وجذبت نفَسًا عميقًا. كانت قد جربت التوق للماضي، وكراهية الحاضر، اليأس والضياع المتناميين، ولكنها لم تجرب أبدًا تلك الرغبة الجامحة في قتل شخص ما. لقد غادرت منزلها أخيرًا؛ لأنها شارفت على قتل نفسها، ولم يعُد لديها سبب أن تبقى على قيد الحياة. ربما هذا ما دفعها أن تركب سيارة «أوبسيديان»، فهي لم تفعل من قبل مثل هذا الأمر.

مسَّ فمها، وقلد حركات الكلام مستخدمًا إبهامه وأصابعه؛ يسألها إن كان بمقدورها الكلام، أومأت بالإيجاب، وراحت تشاهد علامات من حسد طفيف تظهر وتختفي على وجهه. الآن، كلاهما اعترف بما ليس من الآمن الاعتراف به، ولم يكُن هناك عنف. أشار إلى فمه وجبهته، وهز رأسه؛ لم يكُن بمقدوره الكلام أو فَهْم اللغة المنطوقة. المرض يتلاعب بهما، أخذ من كل واحد منهما ما يُقدِّره الآخر.

أمسكت طرف قميصه، متسائلة: لماذا قرر من تلقاء نفسه أن يُبقِي على «قسم شرطة لوس أنجلوس» حيًّا مع ما تبقى؟ كان عاقلًا بما فيه الكفاية! لماذا لا يقبع في منزله يزرع الذرة ويربي الأرانب والأطفال؟ ولكنها لم تدرِ كيف تسأله. وضع يده على فخذها، وأصبح لديها سؤال آخر تبحث عن جوابه.

هزت رأسها بالرفض؛ الأمراض، الحمل، العجز، ألم الوحدة.. كلا، راح يدلك فخذها بلطف، وابتسم بإنكار واضح.

لم يمسها أحد منذ ثلاث سنوات، ولم تكُن تريد أن يمسها أحد. أيُّ عالم هذا لتجلب إليه طفلًا، حتى ولو كان الأب سوف يبقى إلى جانبها يساعدها في تنشئته؟! كان عالمًا سيئًا للغاية. لا يدري «أوبسيديان» كم هو جذاب بالنسبة لها! شاب، ربما كان أصغر منها، نظيفًا، يسأل ما يريد بدلًا من أن يطالب به. ولكن لا يهم شيء في هذا الأمر.. كيف يمكن أن تساوي بضع دقائق من المتعة، بعمر من العواقب؟

ضمها إليه، وللحظات تركت نفسها تستمتع بالقرب منه، رائحته طيبة، رجولية وجيدة. ابتعدت عنه على مضض. تنهَّد، ومد يده نحو خزانة القفاز في السيارة. انتبهت لا تعرف ما تتوقعه، ولكن كل ما فعله أن أخذ من الخزانة صندوقًا صغيرًا. الكتابة على الصندوق لا تعني لها شيئًا. لم تفهم حتى كسر الختم، فاتحًا الصندوق، مخرجًا واقيًا ذكريًّا. نظر إليها، فأشاحت بوجهها من المفاجأة، ثم ضحكت، لم تستطِع أن تتذكر متى ضحكت آخر مرة.

ابتسم ابتسامة عريضة، وأشار نحو المقعد الخلفي، فضحكت بصوت عالٍ. حتى في سن مراهقتها، كانت تكره المقاعد الخلفية للسيارات. لكنها نظرت حولها في الشوارع الخالية، وأطلال الأبنية، ثم خرجت وانتقلت إلى المقعد الخلفي. تركته يتحضَّر، وكم فوجئت من حماسته!

في وقت لاحق، راحا يجلسان معًا، مغطيين بمعطفه، غير راغبين أن يرتديا ملابسهما كالغرباء بعد ثانية. أشار لها بما معناه: «ألكِ أطفال؟»، ونظر لها ثانيةً. ازدردت ريقها، وهزت رأسها. لم تدرِ كيف تخبره بوفاة أطفالها. أمسك بيدها ورسم عليها بسبابته علامة الصليب، ثم أشارَ إشارة الأطفال ثانيةً. أومأت برأسها، ورفعت ثلاثة من أصابعها، ثم أشاحت بوجهها تحاول أن توقف فيض الذكريات. قالت لنفسها: «إن الأطفال الذين يكبرون الآن، يستحقون الرثاء. يجرون بين وديان وسط المدينة، دون أن يدروا كيف كانت هذه الأبنية ولا من أين جاءت.. أطفال اليوم يجمعون الكتب، كما يجمعون الحطب؛ ليحرقوها كوقود. يجرون في الشوارع، يطارد بعضهم بعضًا، وهم يتصايحون مثل قردة الشمبانزي.. ليس لهم مستقبل.. إنهم الآن ما سوف يكونونه للأبد».

وضع يده على كتفها، فاستدارت فجأة، وأشارت إلى صندوقه الصغير، تحثه أن يمارسا الحب ثانيةً. كان بمقدوره أن يمنحها سعادة لا تنساها. إلى الآن، ليست ثمة شيء كان بمقدوره أن يفعل هذا. إلى الآن، كان كل يوم يقرب منها ما غادرت منزلها هاربة من فعله؛ أن تضع مسدسها في فمها وتشد الزناد.

سألت «أوبسيديان» إن كان يرغب أن ينتقل إلى منزلها ويبقى معها. بدا متفاجئًا وسعيدًا عندما فَهِم. ولكنه لم يُجِب على الفور. وأخيرًا هز رأسه بالرفض؛ كما خشيت أن يفعل. ربما كان يستمتع أكثر بلعبة الشرطة واللصوص والتقاط النساء. راحت ترتدي ملابسها خائبة الأمل، غير قادرة أن تشعر بأيِّ غضب ناحيته. ربما كان لديه بالفعل زوجة ومنزل، وفي الغالب هذا هو الأرجح؛ فالمرض كان أقسى على الرجال منه على النساء، قتْل الكثير من الرجال، وترْك الكثير من الناجين الذكور شديدي الضعف. الرجال مثل «أوبسيديان» قلة. أما النساء فيستقررن من أجل النزر القليل أو يبقين وحدهن. وإذا وجدن مَن هو مثل «أوبسيديان»، فسوف يعملن على أن يستبقونه. توقعت «راي» أن لديه امرأة أصغر سنًّا وأكثر جمالًا تحافظ عليه.

سألها بينما تعلق سلاحها، بسلسلة معقدة من الإشارات، ما إذا كان محشوًّا، فأومأت إيماءة غامضة. ربَّت على ذراعها. سألته ثانيةً إذا كان يرغب أن ينتقل إلى منزلها، مستخدمة هذه المرة مجموعة مختلفة من الإشارات. بدا مترددًا؛ ربما كان يوازن. خرج وانتقل إلى المقعد الأمامي دون أن يجيب.

عادت لمقعدها الأمامي ثانيةً، وراحت تراقبه. خلع زيه الرسمي، ونظر نحوها. فكرت أن عليها أن تسأله عن شيء ما، ولكنها لم تكُن تعرف ما هو. خلع شارته الرسمية، ومسح عليها بإصبعه، ثم مسح على صدره.. بالتأكيد.

أخذت الشارة من يده، ثم ثبَّتت دبوس عود القمح على الشارة. إذا كان ولعه بلعبة الشرطة واللصوص هو جنونه الوحيد؛ فلتدعه يلعب. سوف تأخذه، بزيه، بكل ما فيه. خطر لها أنها قد تفقده في نهاية المطاف بسبب شخص آخر يلتقيه كما التقى هو بها، ولكنها في النهاية سوف تكون قد امتلكته ولو لحين.

أخذ الخريطة ثانيةً، ومسح عليها، مشيرًا بغموض إلى الشَّمال الشرقي حيث «بسادينا»، ثم نظر لها. هزت كتفَيها باستهجان، ثم ربَّتت على كتفه، ثم على كتفها، ورفعت إصبعَيها السبابة والوسطى وقد ضمتهما معًا؛ لتؤكد المعنى. أمسك بإصبعَيها، وأومأ.. هو معها.

أخذت الخريطة منه ورمتها فوق لوح قيادة السيارة، وأشارت نحو الجنوب الغربي.. نحو منزلها. الآن، لم تعُد ترغب في الذهاب إلى «بسادينا». الآن، يمكنها أن تعود دون أن يكون عليها أن تجد أخاها واثنين من أبنائه، ثلاثة ذكور من مستخدمي اليد اليمنى. الآن، لم يعُد عليها أن تجدهم؛ حتى لا تبقى وحيدة كما كانت تخشى.. الآن، لن تكون وحيدة.

مضى «أوبسيديان» جنوبًا في شارع «هيل»، ثم في شارع «واشنطن» نحو الغرب، بينما أراحت هي ظهرها، متسائلة عما يعني أن تعيش مع شخص ثانيةً. مع ما نهبته، وما حفظته، وما ربته، سوف يكون لديهما ما يكفي من الطعام. ومن المؤكد أن هناك ما يكفي من الغرف في منزل مكون من أربع غرف. يمكنه أن ينقل ممتلكاته إلى منزلها. أفضل ما في الأمر، أن الحيوان الساكن عبر الشارع سوف يتراجع، وربما لن يدفعها إلى قتله.

سحبها «أوبسيديان» لتصبح قريبة منه، فأسندت رأسها على كتفه، حتى داس كبَّاحات السيارة فجأة، وكاد أن يُطِيح بها من فوق المقعد. من جانب عينها، شاهدت أحدهم يجري عبر الشارع أمام السيارة. سيارة في الشارع وأحدهم يجري أمامها. استقامت، فاستطاعت «راي» أن ترى أن مَن يجري كان امرأة، هرعت من منزل قديم إلى واجهة مخزن بضائع. كانت تجري صامتة، ولكن الرجل الذي يتبعها كان يصرخ بما بدا كأنه كلمات مشوهة. وهو يجري كان بيده شيء ما، ليس بمسدس، كان سكينًا على الأرجح.

جرَّبت المرأة بابًا، فوجدته مغلقًا، نظرت حولها في يأس، وأخيرًا نزعت قطعة من الزجاج المكسور في واجهة مخزن البضائع، واستدارت لتواجه بها مَن يطاردها. فكرت «راي» أنها على الأرجح سوف تجرح يدها أكثر من أن تستطيع أن تجرح أيَّ شخص آخر بهذه القطعة من الزجاج.

وثب «أوبسيديان» من السيارة صائحًا. كانت المرة الأولى التي تسمع فيها «راي» صوته.. عميقًا وأجش من قلة الاستخدام. راح يكرر نفس الصوت مرة تلو مرة، بنفس الطريقة التي يفعلها البكم:

- دا.. دا.. دا.

ترجلت «راي» من السيارة، بينما راح «أوبسيديان» يعدو في اتجاه الزوجين. استلَّ مسدسه، فاستلَّت مسدسها خائفة وأزالت صمام الأمان. نظرت حولها تبحث عمن جذبه المشهد غيرهما، فرأت الرجل يُحدِّق في «أوبسيديان»، ثم اندفع فجأة صوب المرأة، التي ضربت وجهه بقطعة الزجاج، ولكنه أمسك ذراعها، وطعنها مرتين قبل أن يُطلِق «أوبسيديان» عليه النار.

ترنح الرجل، ثم وقع وهو يمسك ببطنه. أشار «أوبسيديان» إلى «راي» أن تساعد المرأة. تحركت «راي» إلى جوار المرأة، وتذكرت لحظتها أنها لا تملك في حقيبتها إلا بعض الضمادات والمطهرات. ولكن حالة المرأة لم تعد تجدي معها المساعدة؛ كانت قد طُعِنت بسكين جزار طويلة ورفيعة.

لمست «أوبسيديان» لتُعلِمه أن المرأة قد ماتت. كان ينحني ليفحص الرجل الجريح والذي يبدو أنه مات أيضًا. استدار «أوبسيديان» ليرى ماذا تريد «راي»، ففتح الرجل عينَيه، وبوجه يتألم، سحب سلاح «أوبسيديان» من جرابه وأطلق النار.. أصابت الرصاصة «أوبسيديان» في صدره فانهار.

وقع الأمر بغاية البساطة، وبغاية السرعة. في اللحظة التالية أردت «راي» الرجل وهو يحاول أن يدير المسدس صوبها.. أصبحت «راي» وحدها، مع ثلاث جثث.

انحنت إلى جوار «أوبسيديان»، وبعيون جافة، ووجه عابس، حاولت أن تفهم لماذا تغير كل شيء فجأة! رحل «أوبسيديان».. مات وتركها؛ كأيِّ شخص آخر.

خرج طفلان صغيران للغاية من المنزل الذي خرج منه الرجل والمرأة يجريان؛ ولد وبنت، بالكاد في الثالثة من عمرَيهما. عبرا الشارع نحو «راي» رافعَي أذرعهما. حدَّقا فيها، ثم تجاوزاها إلى المرأة الصريعة. هزت الطفلة ذراع المرأة كأنها تحاول أن توقظها.

كان هذا كثيرًا على «راي». وقفت، وهي تشعر بألم في معدتها يختلط بشعور من الكآبة والغضب. إذا بدأ الطفلان في البكاء، فإنها سوف تبدأ في التقيؤ. كانا وحدهما، لكنهما كانا كبيرين بما يكفي ليبحثا بمفردهما عن الطعام في النفايات. لا تريد أيَّ كآبة إضافية. لا تريد أطفالًا غرباء يكبرون ليصبحوا قرود شمبانزي صماء.

عادت للسيارة. هي تستطيع أن تقود لمنزلها على الأقل، فهي لا تزال تتذكر كيف تقود. قبل أن تصل للسيارة خطر على بالها أنها يجب أن تدفن «أوبسيديان»، فراحت تتقيأ. لقد عثرت على الرجل وفقدته بسرعة جدًّا. كان الأمر كأنها اختُطِفت من الراحة والأمان، وتعرضت لضرب مُبرِّح مفاجئ دون سبب. كان عقلها مشوشًا، ولا تستطيع التفكير.

بطريقة ما، أجبرت نفسها على أن تعود له، وأن تُلقِي نظرة عليه. وجدت نفسها على ركبتَيها إلى جواره. مسحت على وجهه، وعلى لحيته. أحد الطفلين أحدث ضوضاء، فنظرت صوبهما، وصوب المرأة التي يُحتمَل أن تكون أمهما. نظر الطفلان لها مذعورين. ربما كان خوفهما قد انتقل لها أخيرًا.

كانت على وشك أن تقود السيارة وتتركهما. كادت أن تفعل، وتقريبًا كانت تتركهما للموت. من المؤكد أنه كان هناك ما يكفي من الموت. لعله يتوجب عليها أن تصحبهما معها إلى المنزل. لن يكون بمقدورها أن تعيش مع أيِّ قرار آخر. تطلعت حولها تبحث عن مكان تدفن فيه الجثث الثلاث، أم جثتين؟ تساءلت: هل القاتل أبو الطفلين، قبل أن يعم الصمت؟ كانت الشرطة تقول إن المكالمات الأكثر خطورة هي تلك المكالمات المتعلقة بالعنف المنزلي. كان ينبغي أن يعرف «أوبسيديان» هذه المعلومة. وكأن معرفته بها كانت ستبقيه في السيارة، ولم تكُن ستضطرها لمغادرة السيارة، أو رؤية مقتل المرأة أو فعل شيء.

جرَّت جسد «أوبسيديان» نحو السيارة. لم يكُن معها ما تحفر به، ولا يُوجَد مَن يحرسها بينما تقوم بالحفر. من الأفضل أن تأخذ الجثامين معها، وتدفنهم إلى جوار زوجها وأطفالها.. سيأتي «أوبسيديان» إلى منزلها في النهاية على أيِّ حال.

عندما وضعت جثته على الأرضية في الخلف، عادت للمرأة. وقفت الطفلة الصغيرة، نحيلة وقذرة، وجادة، ودون معرفة قدَّمت لـ«راي» هدية، فعندما بدأت «راي» تجر المرأة من ذراعَيها؛ صرخت الطفلة:

- كلا!

تركت «راي» المرأة وحدَّقت في الطفلة. كررت الطفلة:

- كلا!

وذهبت ووقفت إلى جوار جثة المرأة، وقالت لـ «راي»:

- ابتعدي!

قال الفتى الصغير للطفلة:

- لا تتكلمي.

ليس هناك وهْم أو ارتباك بشأن الأصوات.. كلا الطفلين يستطيعان الكلام، و«راي» فهمت الأمر. رمق الغلام جثة القاتل ثم ابتعد عنها أكثر، وأمسك بيد الطفلة، وهمس لها:

- ابقي هادئة.

حديث طلق! هل كانت المرأة قادرة على الكلام، وعلَّمت طفلَيها الكلام؟ هل قتلها زوج انفجر غضبه، أو غريب يحركه حنق الغيرة؟ والطفلان.. لا بد وأنهما وُلِدا بعد الصمت.. هل قام المرض بعمله إذن؟ أو أن هذين الطفلين منيعان ببساطة؟ من المؤكد أنه كان لديهما من الوقت ما يكفي لكي يُصابا بالمرض والصمت. كان عقل «راي» يدور: «ماذا إذا كان الأطفال الذين في سن الثالثة أو دون ذلك آمنين من المرض وبمقدورهم تعلُّم اللغة؟ ما إذا كان كل ما يحتاجون إليه المعلمين؟ المعلمين والحامين؟».

رمقت «راي» القاتل الميت. أخجلها أن بمقدورها أن تفهم المشاعر التي قادته لفعله، أيًّا كان هو: الغضب أو الإحباط أو اليأس أو الغيرة الجنونية.. كم من الناس مثله، هؤلاء الذين على استعداد أن يدمروا ما لا يملكون؟!

«أوبسيديان» لم يكُن الحامي، لقد اختار أن يلعب الدور عندما عرف السبب. لعل ارتداء الزي الرسمي القديم والتجوال لحراسة الشوارع الفارغة كان عوضًا عن أن يضع مسدسًا في فمه. والآن، بعدما أصبح هنا مَن يستوجب الحماية.. مضى.

لقد كانت معلمة.. معلمة جيدة. فكرت في نفسها، فقد كانت حامية أيضًا. لقد أبقت على نفسها حية حينما لم يكُن لديها سبب للحياة. إذا ترك المرض هذين الطفلين لحالَيهما، فإنها سوف تحافظ عليهما أحياء.

بطريقة ما، حملت المرأة الصريعة بين ذراعَيها ووضعتها في المقعد الخلفي للسيارة. بدأ الطفلان في البكاء، ولكنها ركعت على الأرضية المحطمة وهمست لهما، خائفة أن تخيفهما بصوتها الذي قسا من طول عدم الاستخدام. قالت لهما:

- كل شيء على ما يُرام. سوف تذهبان معنا أيضًا.. هيَّا.

حملتهما، كل واحد في ذراع. كانا في غاية الخفة.. هل كانا يأكلان ما يكفي؟ غطى الغلام فمها بيده، ولكنها حوَّلت وجهها بعيدًا. قالت له:

- لا ضير إذا تحدثت معي، طالما لا يوجد أحد حولنا، فلا بأس.

وضعت الغلام في المقعد الأمامي للسيارة، فتحرك دون أن تقول له ليُفسِح مكانًا للفتاة. وعندما ركب كلاهما في السيارة، انحنت «راي» على النافذة، ونظرت لهما، فرأتهما قد أصبحا أقل ذعرًا الآن، وراحا ينظران لها نظرة فضول أكثر منها نظرة خوف. قالت:

- أنا «فاليري راي»، متلذذة بالكلام.

وأردفت:

- لا بأس من أن تتحدثا إليَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكاتبة

«أوكتافيا باتلر» (Octavia E. Butler (1947-2006): كاتبة أفرو- أمريكية، وُلِدت في مدينة «باسدينا» في ولاية «كاليفورنيا»، لأم تعمل خادمة منزلية، وأب يعمل في مهنة تلميع الأحذية، تُوفِّي أبوها وهي في سن السابعة، فعاشت وأمها في فاقة شديدة. وعند التحاقها بالمدرسة بدا عليها أعراض مرض «عُسْر القراءة»، وهو مرض عصبي لم يكُن معروفًا زمنها، وهو ما نتج عنه توقُّفها عن الدراسة النظامية؛ فاستعاضت عنها بالذهاب إلى المكتبة العامة والمواظبة على الاطلاع والقراءة، رغم متاعبها الصحية. في المكتبة العامة اكتشفت عالم الخيال العلمي؛ من خلال مجلات الخيال العلمي الشعبية، وفي سن العاشرة اشترت لها أمها آلة كاتبة؛ لتبدأ كتابة قصصها وترسلها إلى تلك المجلات التي سحرتها، وهو ما ساعدها على تجاوُز مشكلتها الصحية.

أزهرت موهبة الكاتبة في تلك الفترة التي بلغت فيها التفرقة العنصرية وحركة الحقوق المدنية ذروة صراعهما في الولايات المتحدة، فحصلت على الثانوية عام 1968، العام نفسه الذي شهد اغتيال الزعيم الأفرو - أمريكي «مارتن لوثر كينج». وبدلًا من أن تعمل في مهنة السكرتيرة، وهي أعلى مهنة يمكن أن تنالها في ذلك الوقت فتاة أفرو - أمريكية، راحت تداوم على تطوير ملَكات الكتابة لديها وتتابع شق طريقها إلى عالم كتابة الخيال العلمي.

تميزت كتاباتها بالهجوم على التفرقة العنصرية، والسيطرة الذكورية، وهو ما جعلها من أهم الأصوات النسائية وأصوات الأقليات في عالم أدب الخيال العلمي الأمريكي. ولقد نالت كتاباتها اعتراف زملائها الذين منحوها جوائز «هوجو»، و«نيبولا» العديد من المرات، كما خصصت «جمعية كارل براندن»، وهي جمعية لكُتَّاب الخيال العلمي والفانتازيا الأمريكيين من غير بيض البشرة، منحة دراسية باسمها؛ تكريمًا لذكراها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المترجم

وسام الدين محمد عبده: أكاديمي ومترجم وكاتب مستقل. وُلِد في الإسكندرية عام 1974. يحمل درجة الدكتوراة في العلوم البيئية، وعمل أستاذًا في جامعات مصرية وعربية. يهتم بالشأن الثقافي العام، وبصورة خاصة الخيال العلمي والتاريخ والفلسفة، له العديد من الدراسات والمقالات الفكرية المنشورة في مجلات ومواقع مختلفة، وشارك في مجموعة قصصية لكُتَّاب الخيال العلمي العرب صدرت باسم: «خيال علمي 1» عن دار «ناشري» الكويتية. من ترجماته: «فرويد: أعماله وحياته» عام 2010. ومن ترجماته مع دار «منشورات ويلز»: رواية «الطاعون القرمزي» للكاتب الأمريكي «جاك لندن» عام 2012، ورواية: «الشيء القادم من عالم آخر» للكاتب الأمريكي «جون و. كامبل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

Notes

[←1]

«أصوات الكلام» Speech Sounds: قصة قصيرة من أدب الخيال العلمي، نُشِرت للمرة الأولى في عدد ديسمبر 1983 من مجلة Asimov's Science Fiction Magazine، وهي أول أعمال الكاتبة التي نالت عنه جائزة «هوجو» عام 1984.

[←2]

حجر «السبج» Obsidian: حجر كريم من الزجاج البركاني، يُستخدَم في صناعة الحُلِي والمجوهرات والشفرات الحادة.

[←3]

الاسم «راي» Rye يعني: نبات «الجاودار» أو «الشيلم»، وهو نبات عشبي يشبه القمح إلى حد كبير، يُستخدَم طعامًا للإنسان والحيوان.